الإسلام والغرب: إشكالية التحيز في الروايات الشعبية البريطانية والأمريكية 1970–1997*

أنس الشيخ علي**

تقديم: أغراض الدراسة وإطارها الزمني

يرمي هذا البحث إلى القيام بعملية توثيق وتقويم للاتجاه المعادي للإسلام في الروايات البريطانية والأمريكية الشعبية المعاصرة، وهو اتجاه يتسارع في النمو منذ بواكير السبعينيات.

وفضلاً عن التوثيق والتقويم سيتعرض البحث إلى مسائل نعتقد أن لها علاقة وثيقة الصلة بالموضوع العام، وهي مسائل قد يصعب تناولها بشكل شامل أو مرضٍ، إذ هي معقّدة ومتصلة بالعديد من ميادين السعي البشري فردياً كان أم جماعياً، ولذلك فإن قضايا مثل العلاقة أو التوتر (أو كليهما معاً) بين الخيال الجامح والواقع، والموروث والموهبة الفردية، (كما يقول **ت.س. إليوت**) والأدب الخلاّق والمؤسسة السياسية، والذات والآخر، وحرية التعبير والخيال من جانب، والاعتبارات الأخلاقية من جانب آخر، إلى غير ذلك من أمور، تستنفذ الكثير من النقاش، كما تثير الكثير من الجدل، دون إعطاء فرصة لجلاء غموضها أو التوصل إلى موقف موحد منها. ولِمَ تسمح بذلك؟ فهي مثل كليوباترة عند **شكسبير** تستطيع أن تتحدى الزمن وتمتّعنا "بتنويعاتها التي لا تنتهي". وعلى الرغم من ذلك كله فإن مناقشة هذه القضايا والمسائل أمر مفيد بل ضروري

---

* قدم أصل البحث باللغة الإنجليزية في ندوة: "الإسلام والغرب: رؤية معرفية" (التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بمقره بالولايات المتحدة الأمريكية) بعنوان:
"Islam in British and American Popular Fiction 1970-1997: Conspiracy or Fashion",
وقد ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور عبد الواحد لؤلؤة وراجعه المؤلف.

** دكتوراه في الدراسات الأمريكية من جامعة مانشستر، بريطانيا 1983. مستشار أكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في أوربا، ونائب رئيس أكاديمية أكسفور للدراسات العليا.

لأن مثل هذا النقاش، حتى إن لم يؤد إلى توافق في الآراء، هو قضية مصيرية ربما ترتبط بها سعادة الإنسانية أو دمارها.

وفي هذا السياق أودّ أني لا أتكلم باسم التراث الإسلامي العربي، أو أدافع عنه بالوقوف وقفة غائبٍ يرغي ويزبد وهو يشنّ حرباً على عالم مخادع ظالم، أو باللجوء إلى الأنين والنحيب محاولةً منه كسب التعاطف مع قضيته. بل إني أدّعي (وقد أكتشف أني قد خدعت النفس أو ضللتها بهذا الادعاء)، أنني أتحدث باسم الإنسانية جمعاء. أما بالنسبة للعالم الإسلامي فإني أشعر دون أيّة مواربة بأنه يحتاج إلى المزيد من النقد الذاتي والخارجي، على أن يكون نقداً منصفاً وبناءً، فقد أصبح لزاماً على العالم الإسلامي أن يتعلم كيف يتدبّر الأمور بصورة أفضل وأكثر مرونة وعقلانية، وأن لا ينزلق أكثر فأكثر في مهاوي التصلب وشباكه.

وكما يتضح من العنوان، فإن المواد التي جمعت تجعل عام 1970 منطلقاً وبداية لهذه الدراسة، ولم يتم اختيار هذا العالم اعتباطاً: فالحرب العربية –الإسرائيلية عامي 1967 و1973، والحظر على النفط، والحرب الأهلية اللبنانية، والثورة الإيرانية، وأزمة الرهائن، والكساد في بواكير الثمانينيات، وحربا الخليج، وغير ذلك من أمور أخرى عديدة، ركزت الانتباه وسلطت الأضواء على الإسلام والمسلمين بشكل لم يسبق له مثيل. ولكن الأهم من ذلك أن هذه الأحداث وضعت المصالح الذاتية والقومية أمام تحدٍّ كبير في مناطق مختلفة من العالم، وكان هذا التصادم حقيقياً، ومكلفاً، وصاخباً، ومفجعاً في بعض الأحيان. ويجب ألاّ ننسى أن المشاعر الدينية في العالم أجمع –تلك التي كُبِتَتْ مدة طويلة من الزمن تحت تأثير النظريات الفلسفية والإيديولوجيات اللادينية والألوان البراقة للحضارة المادية الاستهلاكية– شهدت انبعاثاً واسعاً لأسباب تتراوح بين اليأس والتطرّف المفرط والإغراق المادي فضلاً عن إخفاق الحلول الوضعية في معالجة مشاكل الإنسانية.

الرواية الشعبية: أصنافها ومدى تأثيرها

ومهما يكن من أمر، فإن مادة هذا البحث تضم حوالي (350) عنواناً من الروايات الشعبية التي نشرت بين عامي 1970 و 1977، وبذلك تتجاوز المجال والحقبة الزمنية للدراسة القيمة التي أعدتها **ريفا**

سايمون بعنوان: **الشرق الأوسط في روايات الإجرام.**[1] وتشتمل المجموعة التي اختارتها على أنماط وأنواع عديدة من الروايات الشعبية مثل: روايات الإثارة، وروايات الإثارة التقنية، وروايات الجاسوسية (التي تنعت أحياناً بالإثارة السياسية)، والروايات الغرامية، وروايات الغرام التاريخية، والروايات التاريخية، وروايات الإبادة الجماعية النووية (أو الكيماوية والبيولوجية)، والروايات التنصيرية، والروايات الشبابية، وروايات الأطفال، وحتى الروايات الإباحية.

أما تصاميم الأغلفة لغالبية هذه الروايات فهي تستدعي اهتماماً خاصاً، إذ تنجح حتى قبل أن يفتح القارئ الرواية –في قولبة الإسلام والمسلمين بصورة مؤثّرة وتبرزهم بوصفهم إرهابيين ومتوحشين وشهوانيين وفاسدين، إلى غير ذلك من النعوت.

ويدل مدى انتشار هذه الروايات الشعبية وكثرتها الفائقة وتنوع أنماطها على شيوع هذا الجنس[2] من الكتابات بين عامة الناس، فهي تطغى على حوالي 80٪ من مجموع الكتب ذات الطبعات الرخيصة والبيع السريع. وتفيد الإحصائيات كذلك أن روايات الجاسوسية تحظى بجمهور ضخم من القراء في العالم، حيث أنه من بين كلّ أربع من الروايات الجديدة التي تصدر في الولايات المتحدة ثمّة واحدة تقع ضمن هذه الأنماط،[3] وهي تشكل بمجموعها حوالي 90٪ تقريباً مما يطلق عليها الرواية الشعبية. ونود التنويه هنا إلى أن هذا البحث لا يتناول روايات الخيال الجامح (من نمط السيف والسحر، وقد تناولها بالبحث الدكتور رياض نورالله)[4] أو الروايات الأدبية والعلمية.

---

1 أنظر: Reeva S. Simon: The Middle East in Crime Fiction: Mysteries, Spy Novels and Thrillers 1916 to the 1980's, New York: Lilian Barber Press, 1989.

2 انظر: Writers' and Artists' Yearbook 1995, London: A. and C. Black, p256

3 انظر: Frank N. Magill (ed.): Critical Survey of Long Fiction: English Language Services, Englewood, NJ: Salem Press, 1983.

4 انظر: Riad Nourallah: "Sorcerers, Straight Swords, and Scimitars: The Arab Islamic East in Modern Fantasies of Magic and conflict", The International Journal of Islamic and Arabic Studies, Indiana University, VII, No.2, 1990, pp1-40.

ومع ذلك فإن المجال الذي أقدمه هنا، كما نوّهت سابقاً، مجال شديد الاتساع والرواج بين طبقات المجتمع على اختلافها وعند القراء من مختلف الأعمار، ويسهل الحصول على تلك الأعمال سهولة الحصول على الصحف، حيث لا يقتصر بي هذه الكتب على الأماكن المعتادة –مثل متاجر الكتب– فقط (وهذا ما تذكره الآنسة **سايمون** أيضاً)،[5] بل تباع كذلك في أماكن غير معتادة، مثل المطارات ومحطات القطارات والحافلات، وفي الصيدليات والمتاجر العادية، وفي محطات الوقود وعند بائعي الصحف. وعلاوة على ذلك، فإن عدداً كبيراً من هذه الكتب يترجم وينشر بلغات أوربية وغير أوربية حال صدورها. وفي معرض الكتاب الدولي في فرانكفورت عام 1994، وجدنا أن رواية **قبضة الله**[6] قد ترجمت إلى ثماني لغات أوربية، أربع منها أوربية شرقية، وذلك خلال بضعة شهور فقط من صدور طبعتها الأولى بالإنكليزية. وهناك أمثلة أخرى سار الاتجاه فيها من لغات أوربية إلى الإنكليزية.[7]

وقد لا يكون صعباً أن نتعرف على سبب إعجاب الجمهور بالروايات الشعبية، فهي مثل غيرها من أشكال التسلية الحديثة (الأفلام والأغاني...إلخ) سهلة القراءة والمتابعة، وعنصرية النزعة ملأى بالأحداث والثرثرة الهامشية، كما تميل إلى التبسيط أخلاقياً وانفعالياً، وهي لا تضج بالحركة وحسب، بل فيها قدر كبير من العنف، والدم، والغرابة، والجنس الذي يتراوح بين التلميح والتصريح، هذا فضلاً عن انخفاض أسعارها.[8]

---

5 انظر: Simon، المرجع السابق، ص7.

6 انظر: Frederick Forsyth: The Fist of God, London: Bantam Press, 1994.
في بداية أبريل 1995 كانت الطبعة الشعبية من هذه الرواية تحتل المرتبة الرابعة في قائمة أفضل المبيعات في المملكة المتحدة، ثم ارتفعت إلى المرتبة الأولى في منتصف الشهر نفسه.

7 انظر مثلاً: Oriana Fallaci: Inshallah, London: Chatto and Windus, 1992.
وكذلك: Aldox Busi: Sodomies in Elven Points, London: Faber and Faber, 1992.
وكلاهما مترجم عن الإيطالية.

8 قد يقال إن هذه الكتابات "لا تمثل الأفضل في الغرب" لكن الأفضل في الغرب لا يتمتع بالشعبية. فالشعر الراقي لا مكان له في هذا العصر. وقد يكون في هذا ما يفسر أن صحيفة لندنية مثل The Sun التي تنشر الفضائح والصور الخليعة تصل مبيعاتها في المملكة المتحدة إلى ثماني أضعاف ما تبيعه "الصحف الرصينة" مثل The times أو The Independent. ولكن حتى في مجال الرواية الأدبية صرنا نسمع الكثير من التبرم في الآونة الأخيرة. قال جون بيلي John Byley رئيس المحكمين في جائزة الكتب Booker Prize عام 1994 إنه يشعر بأن "الرواية الحديثة قد ضلت طريقها". وقد ورد في هذا مقالة كتبها ديفيد نيكلسون لورد بعنوان: "اكتب لي رواية أستطيع قراءتها" وكان لورد يصف الحضيض الذي انحدرت إليه الرواية الحديثة، قائلاً: "إن العُهر الذي تدنى إليه العالم الأدبي لم يعُد يدهشني لأنني توصلت إلى يقين بأن جميع الروايات المعاصرة، إنما هي من إنتاج ثلاثة أشخاص يعملون تحت سلسلة من

تجب الإشارة هنا إلى أنه خلافاً لبحث الآنسة **سايمون**، فإن معظم الروايات التي جمعناها تركّز على موضوعات الإسلام والشخصيات المسلمة وليس فقط الشخصيات العربية أو الشرق أوسطية، وهي بذلك تتجاوز الحدود العرقية، وكذلك الحرب الباردة التي لم يعد لها وجود.

ولنقف عند هذا النص من إحدى الروايات:

"وبدأ رسول يتابع السير بكل تؤدة، عبر الغرفة، وهو يستعمل الكلاشنكوف بمهارة المتمرّس، مُطلقاً على كل واحد من المهندسين حوله. وفي البداية حاول هؤلاء الفرار إلى أن أدركون أن رسول كان يسوقهم إلى زاوية وكأنه يسوق قطيعاً، ويستمر في عملية القتل أثناء تحرّكه. وهكذا قُتل خمسة وعشرون من الخنازير الكفرة على الأقل. خمسة وعشرون محتلاُ أجنبياً انتهت مهمتهم في الوقوف بين شعبه والخالق. لقد نفّذ حقاً إرادة الله. ثم أخرج من جيبه أغلى ممتلكاته الشخصية، وهو نصف القرآن الذي ورثه عن جدّه وفتحه على إحدى الصفحات فكانت آيات من سورة الأنفال...

كان جده قد قُتل أثناء الثورات الفاشلة ضد موسكو، وتلطّخ اسم والده بالخضوع لدولة الكفّار إذ أن المعلمين الروس كانوا قد حملوا تلكاز على الانضمام إلى النظام الملحد... عندئذٍ فقط أنقذه إله آبائه، كما يقول عمٌّ له، وهو إمام يمارس وظيفته الدينية بشكل سري، وظل مؤمناً بالله، محافظاً على نسخة قديمة من القرآن الكريم وجدت مع أحد المقاتلين في سبيل الله...

لم يكن ثمَّة من مهرب، أو سبب يدعو المهندسين الروس إلى الهرب، فقد وقف كل من محمد وإبراهيم بلا حراك في المدخل والقنابل اليدوية تثب وتنزلق عبر أرضية الغرفة، وبدا العالم حولهما بأسره

الأسماء المستعارة: أحدهم متكهل داهمه الصلع والنظّارة لا تفارق عينيه، والآخر بدين من أنصار المرأة، يعيش في برج منارة بحرية تحولت إلى مسكن، والثالث "بصّارة" متزوجة من أحد تجار الصيرفة، وثلاثتهم يجتمعون مرة كل ستة أشهر ليقرروا محصول العام الروائي.
انظر:
David Nicholson Lord: "Write Me a Novel I Can Read", The Independent on Sunday, April 30, 1994.

وكأنه آخذ في الاشتعال، "نعم من أجلهم سيحترق العالم حولهما بأسره وكأنه آخذ في الاشتعال، "نعم من أجلهم سيحترق العالم بأسره!".

"الله أكبر".[9]

يأتي هذا المشهد المروّع من الرواية المثيرة **هبوب العاصفة الحمراء** (1987) من تأليف **توم كلانسي**. والقصة ذاتها لها أبعاد كابوسية، وتبدأ عندما يفجّر "مسلمون أصوليّون". مجمّعاً نفطياً سوفيتياً كبيراً، محوّلين ما كان حينئذٍ أزمة نفطية إلى كارثة جسيمة. وتكون نتيجة ذلك أن يقرّر السوفييت الاستيلاء على نفط الخليج، فهذا هو الخيار الوحيد المتاح أمامهم كي "ينقذوا أنفسهم" من الهلاك. أما رواية **كلانسي** التي صدرت بعد ذلك بعنوان **ذروة المخاوف جميعاً**[10] (1991)، فإنها تجمع أعضاء مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي كلهم مع بطل الرواية الجريء وهم يحاولون إيجاد السبيل لإنقاذ العالم من كارثة نووية كان يدبّر لها "الشريران الكبيران: **غصن وقاضي** وهما مسلمان "أصوليّان"

في الروايات الشعبية التي صدرت في الخمسينيات والستينيات كان مرتكبو الإبادة الجماعية النووية، أو من يحتمل أن تصدر عنهم مثل تلك الفظائع، من العلماء المجانين والجنرالات المختلين عقلياً والنازيين المحبطين[11] (لابد للقارئ أن يتذكر د. سنزينجلوف و د. نو، وأمثالهم)، كما كان هؤلاء عموماً من أصل ألماني أو صيني أو روسي، وكان الملوم أحياناً انفلات التقنية نفسها من زمام السيطرة.

ثم في رواية صدرت عام 1991 بعنوان العطر القاتل[12] بقلم كوردن توماس تستأجر عصبة من الملالي أحد أرباب الإرهاب العالمي واسمه خليل رضا كي يستخدم سلاح الجمرة الخبيثة الجرثومي (أنثراكس ب. س) ضد الغرب ليكون بداية الجهاد. ولا يستطيع أحد إيقافه سوى عميل من الموساد يتصف بحب الخير والسلام، ولكنه "مضطر" لمحاربة "النار بالنار"! كانت هذه الوصفة بالتأكيد، وصفة رابحة جداً عام 1991

---

9 انظر: Tom Clancy: Red Storm Rising, London: Guild Publishing, 1987, pp. 12-14.

10 انظر: Tom Clancy: The sum of all Fears, London: BCA, 1991.

11 انظر: Paul Brians: Nuclear Holocaust: Atomic War in Fiction, 1985-1984, Kent State: University Press, 1987.

12 انظر: Gordon Thomas: Deadly Perfume, London: chamans, 1991.

(حين كانت أصداء حرب الخليج الثانية لم تخفت بعد) وإلا لما استخدمها **جيمس آدمز** بكل تلك المتعة واليسر في روايته **الرعب الأخير**.[13]

والقائمة تطول وتشمل أعمالاً مثل رواية **موريس فرهي** بعنوان **اليوم الآخر**[14] وفيها يّدَّعي أبو إسماعيل، رئيس جمعية أخوّة دينية سريّة في البادية الأردنية، أنه تلقى كلمة من الله بأنه هو المهدي منقذ الإسلام والبشرية، فيشرع بتقريب اليوم الآخر بإشعال فتيل حرب دينية وذلك بتفجير جهاز نووي فوق مكّة، ومثل ذلك رواية **رأس السيف**[15] بقلم **هارولد كُويْل**، **وشبوب الحريق**[16] بقلم **ريشارد هرمان**.

أما رواية **الوضع قاتم**[17] من تأليف **جيرالد سيمور** (ونشرت كذلك عام 1991!) فإنها تسلك الطريق ذاته. وهناك سلسلة من الأعمال التي تتناول التهديد الإرهابي البيولوجي–النووي الإسلامي ومنها: نزولاً إلى **البحر المظلم**[18] بقلم **ديفيد كرام**، **وروبيكون رقم1**[19] بقلم **دينس جونز**، **وضربة العقرب**[20] بقلم **جون نانس**، و**الخيّال الأحمر**[21] بقلم **ستيفن كوتس**، **وحرارة رمضان**[22] بقلم **ستيفن هارتوف**، و**القاذفة الشبحية**[23] بقلم **بانبي وليمز**؛ إضافة إلى أكاذيب صادقة[24] بقلم **ديوي كرام ودوين دلاميكو**، وهي رواية

---

13 انظر: .James Adams: The Final Terror, London: Michael Joseph, 1991

14 انظر: .Moris Farhi: The Last of Days, London: The Boldley Head, 1983

15 انظر: .Harold Coyle: Sword Point, London: Viking, 1988

16 انظر: .Richard Herman: Firebreak, New York: Avon Books, 1991

17 أنظر: .Gerald Seymour: Condition Black, London: Collins Harvell, 1991
أما روايته At Close Quarters, London: Collins Harvell, 1987 فتقع حوادثها في وادي البقاع في لبنان. روايته Home Run, London: Collins Harvel, 1989 تدور أحداثها في إيران في أوائل الثمانينات.

18 انظر: .David Graham: Down to a Sunless Sea, London: Robert Hall, 1979

19 انظر: .Dennis Jones: Rubicon One, London: Arrow Books, 1984

20 انظر: Jone Nancee: Scorpion Strike, New York: Fawcett Crest, 1992. خلال حرب الخليج الثانية كان مؤلف هذه الرواية طياراً يقود طائرة C-141.

21 انظر: .Stephen Coots: The Red Harsman, London: Arrow Books, 1993

22 انظر: Steven Hartove: The Heat of Ramadan, New York: St. Martin's Paperbacks, 1992.

23 انظر: .Barnaby Williams: Stealth Bomber, London Sphere Books, 1990

24 انظر: .Dewey Gram and Duane Dell'Amico: True Lies, London: Signet, 1994

تقوم على سيناريو سينمائي لشركة "فوكس للقرن العشرين" يقوم بدور البطولة فيه **آرنولد شفارتزنيقر**؛ وفي هذا السيناريو تسرق عصابة تُدعى "الجهاد القرمزي" رؤوساً نووية وتخطط لتفجيرها في الولايات المتحدة. وفي رواية **المحارب الوغد: الفرقة الخضراء**[25] بقلم **ريتشارد مارسينكو وجون وازمن** حيث تلوح الحرب في الأفق، نجد قائداً مسلماً يوصف بأنه "صلاح الدين الجديد" ويصور على أنه "مراوغ لا يضارع تعطشه على السلطة شيء سوى نزوعه إلى القسوة: وهو يقود "حركة دينية تمارس العنف وتُطوِّق العالم بأسره وتتنامى قوتها وهي تسعى إلى تدمير الغرب تدميراً كاملاً".

وتظهر للعيان سيناريوهات كابوسية مرعبة في أماكن وأزمنة تاريخية (فها نحن نقترب من نهاية الألف الثانية للميلاد!!) وذلك فيما يدعى بالروايات التاريخية مثل: جيش من الأطفال،[26] والرحالة،[27] وفارس الهيكل،[28] والمسلِم I وII: بلاد الكفرة والحرب المقدسة،[29] واللعب بالنار،[30] والحمراء: حلبة القَتَلَة،[31] وطلوار،[32] وأعمال عديدة أخرى. وهنا كذلك يلتقي الحب بالعنف والمسيحية بالإسلام، وينشب الصراع بينهما لينتهي لصالح الأبطال المسيحيين الذي يقع على كواهلهم القوية عبئ تخليص العلم من خطر تهديد الإسلام أو على الأقل تقليصه إلى أن يأتي جيل يقضي على الحشرة المؤذية قضاءً مبرماً.

وقبل الانتهاء من هذه النظرة العامة على هذا النوع من الكتابات، من المفيد التعرض بإيجاز لنوعين يتفرّعان عنه:

الأول: الرواية الغرامية (وهدفها التأثير على القارئات من ذوات القلوب الرقيقة)!

---

25 انظر: Richard Marcinko and John Weisman: Rogue Warrior: Green Team, New York: Pocket Books, 1995.

26 انظر: Evan H. Rhodes: An Army of children, London: Har-Davis Mac Gibbon, 1979.

27 انظر: Gary Jennings: The Journeyer, London: Arrow Books, 1984.

28 انظر: Michael Bentine: Templar, London: Bantam Books, 1998.

29 انظر: Robert Shea: The Saracen I & II: Land of the infiedel and the Holy War, Glasgow: Fantana/ Collins, 1989.

30 انظر: Susan Moddy: Playing with fire, London: Futura, 1990.

31 انظر: Colin de Silva: Alhambra: Arena of Assassins, London: Grafton, 1992.

32 انظر: Robert Carter: Talwar, London: Orion, 1993.

والثاني: الرواية الإباحية (التي تستغل المرأة وتصورها بشكل رخيص) مثل التركي الشبق[33] أو ليلة في حريم مغربي.[34]

ويكفينا القول هنا أيضاً إن الروايات الغرامية والإباحية تستخدم الإسلام والمسلمين موضوعاً له وتسيء لهما، وبذلك تحيي ما كان دارجاً في القرون السابقة من استخدام المشرق المسلم مسرحاً للتبذل الجنسي والانطلاق والخيال الجامح في هذا المجال. ونشير في هذا النوع إلى مثال من رواية **التركي الشبق** حيث يشرح حاكم جزائري –يوصف بأنه "مسلم تقي وورع"– لأسيرته الإنكليزية "إميلي بارلو" أن "محمداً الشريف والإسلام المقدس قد أجازا لنا [نحن المسلمين] الاستمتاع بزوجاتنا وسرايانا بأية طريقة تزيد من رفاهيتنا، أي أنه يباح لي شرعاً أن أتمتع بخضوعك لي كلما حلا لي ذلك".[35] وكلما اغتصب هذا الحاكم المسلم أسيرته الإنكليزية أو استباحها أو أتاها من دبر توجّه بالحمد إلى "النبي الكريم" على "هِباته السخية ونعمائه"![36]

وليس من المستغرب أنْ يشعر بعض الناس (والمسلمون لا يستثنون من هذا الشعور وهم تحت المطرقة منذ مدة طويلة) بوجود مؤامرة مستمرة تستهدف الإساءة إليهم وإبقاء السيطرة الأجنبية على مصيرهم. وهم، إذ يستشعرون الريبة في الجو المحيط بهم، يرون أن ثمة مخططاً أو نمطاً ثابتاً أو حملة راسخة أو "مؤامرة عالمية" غايتها تلويث سمعتهم "النقية"، وحجتهم أن ذلك ليس بمستبعد على من تنكروا لعهودهم ونصبوا أنفسهم أولياءَ على مصائر المسلمين ومصائر غيرهم من الشعوب. وهذه ادّعاءات كبيرة بطبيعة الحال، ولكن المسلمين عامةً، وهم المؤمنون "بالفطرة" إيماناً لا يتزعزع، يسيرون حسبما يمليه عليهم حدسهم. وهناك بالطبع عوامل خارجية أخرى (وعيوب داخلية كثيرة) تجعلهم يركزون فقط على نظرية المؤامرة.

نماذج من أغلفة الروايات الشعبية عن الإسلام والمسلمين

---

33 انظر: Anonymous: The Lustful Turk, London: W. H. Allen, 1985.

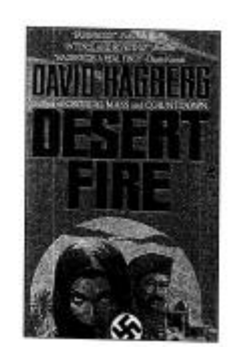
34 انظر: Anonymous: A Night in A Moorish Harem, London: Star Books, 1982.

35 انظر: The Lustful Turk، ص ص50-51.

36 المرجع نفسه: ص17، 26، 39، 42، 78، 80.

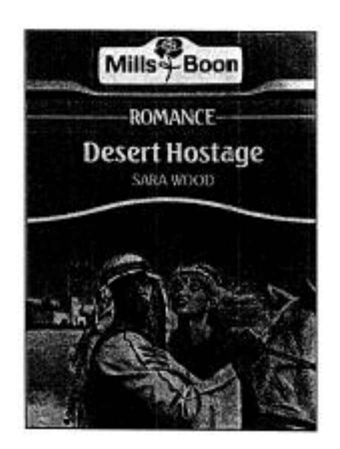
- عنوان الرواية: خان، لكاتبها نيكولاس غرانت. يعكس الغلاف مشهد فارس مسلم ممتطياً صهوة جواده وممتشقاً سلاحه، وقد كتب في أسفل الغلاف العبارة الآتية: "هدفه التخريب، ومسرحه العالم".

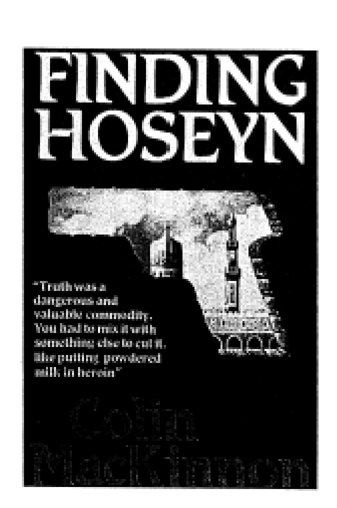




- عنوان الرواية: حريق الصحراء، لكاتبها دايفيد ماغبيرغ. يجمع الغلاف صورة لصدام حسني وامرأة مسلمة محجبة مع خلفية واحة نخيل وقباب ومساجد. وقد رسم في مقدمة اللوحة شعار الصليب المعقوف الرامز للنازية، إيحاء بأن العنصر الجامع في عالم الإسلام والمسلمين هو الإرهاب والعنف.

عنوان الرواية: رهينة الصحراء، لكاتبتها سارة وود. ترمز الصورة إلى التصور الغربي للفتح الإسلامي على أنه مجرد نزعة شهوانية جنسية غايتها سبي النساء لا غير.





عنوان الرواية: العثور على الحسين، لكاتبها كولون ماكنّون. ترمز الصورة إلى أن الإسلام في حقيقته وجوهره عنف وإرهاب (وهو ما يعبر عنه شكل المسدس)، ويجري إخفاء هذه الحقيقة أو التخفيف من حدتها بمظاهر التدين التي رمز إليها بالمسجد، كما يتم إخفاء "حقيقة مخدر الهروين بإضافة مسحوق الحليب إليه"، حسبما جاء في العبارة المكتوبة تحت الصورة.

الرواية الشعبية بين دواعي الفن ودوافع السياسة

ولإثبات هذا الادعاء يورد هؤلاء -وآخرون غيرهم- سوابق تاريخية مهمة من اتفاقات وبيانات استراتيجية عقدت في عواصم غربية نائية من وراء ظهورهم ودون معرفتهم أو موافقتهم تُمنح بموجبها الحقوق أو تُحجب، وتُرسم الحدود أو تُلغى... إلخ، وهنا قد يجنحون إلى الاستطراد أو إلى شيء من العاطفيات، كما يمكن أن يقتربوا أكثر مما يجري في الواقع فيشيروا إلى العديد من العنوانين الرئيسة في الصحف اليومية الغربية

وإلى برامج تلفزيونية مثل: "مسيرة الإسلام خطر مميت سَيُفْنِينا إن تجاهلناه" و"فجَّروه إرباً باسم الله" و"درس من الجزائر: الإسلام لا يمكن تجزئته"، و"الجهاد في أمريكا"، و"باسم الإسلام"، وغير ذلك كثير.

كما يشيرون –لتأكيد ادعائهم بوجود مؤامرة– إلى الاعتداء المعنوي الذي شنَّته صحافة متعطشة لدماء المسلمين وذلك في أعقاب تفجير أوكلاهوما. ثم يصبحون أكثر تحديداً عندما يقدمون حقائق مثيرة عن علاقة عمل وصلات موثقة ومعلنة تربط بين بعض الروائيين ودوائر الاستخبارات في جانبي المحيط الأطلسي. ويعرض **أنتوني ماستَرز** في كتابه بعنوان: **الأدباء العملاء: الروائي جاسوساً**،[37] رؤية مثيرة حول الموضوع ويبيّن أنه قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية وأثناءهما وبعدهما، عمل حشد كبير من الروائيين لصالح الاستخبارات البريطانية أو كانوا مرتبطين بها. وكان من بين هؤلاء **إرْسكِن حايْلدَرز، وجون بوكان** (الذي نُصِّب مديراً للاستخبارات في الحرب العالمية الأولى)، **وسمومرست موم، ومالكم مكَردْج، وكَرايم كَرين، وإيان فلْمنك، وتوم درايبرك، وجون بنگم، ودينس ويتْلي، وجون لوكاريه**.[38] أما مقدمة كتاب **ماسترز** فقد كانت بقلم كاتب روايات الإثارة لن **ديتون**. يقول **ديتون**:

"**أقرّ بأن لديّ من معرفةٍ بالاستخبارات البريطانية لا يزيد عما يحتويه هذا الكتاب، ومع ذلك فإنه يطلعنا على الكثير، فلو كان الأعضاء السابقون يقولون الحقيقة هنا –ويصعب الاعتقاد بأنهم جميعاً قد جانبوا الصواب– فإن أنظمة الأمن عديدة. هل ترتعدون؟ إذن واصلوا القراءة. نجد هنا شخصيات لا يمكن لأي كاتب أن يبتدعها ومواقف فيها من التطرّف ما يعجز عن الإتيان بمثله حتى مخرجو التلفزيون**".[39]

---

37 انظر: Anthony Masters: Literary Agents: The Novelist as Spy, Oxford: Basil Blackwell, 1987.

38 هذه أسماء هؤلاء الروائيين باللاتينية: Erskine Childers, John Buchan, Somerset Maugham, Malcolm Muggeridge, Graham Greene, Ian Fleming, Tom Driberg, John Bingham, Dennis Wheatley and John Le Carre.

39 المرجع نفسه، ص7.

ويبدو أن العديد من الروائيين المعاصرين ينتمون إلى تقليد يكون فيه كتّاب الروايات الشعبية هم أصلاً من العاملين في السلك الدبلوماسي، أو العسكري، أو في الاستخبارات.[40] ونكتفي بذكر بعضهم فقط أمثال: **جون ج. نانس وستيفن كوتْس وستيفن هارتوف وروبرت لورنس هولت وديفيد بوير**. ويستشهد المنادون بنظرية المؤامرة كذلك بالروائي الأمريكي **هاوارد هَنْت** الذي كتب أكثر من أربعين رواية بأسماء مستعارة مختلفة، إذ يجدون في سلوكه وعلاقاته حجّة مقنعة، فقد كان حسب قول **إيرل ديفز** "عميلاً أمريكياً طوال حياته وجاسوساً وعضواً في منظمة الاستخبارات، ثم في وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة البيت الأبيض للمهام السياسية القذرة".[41]

ولكن أهم ورقة يلوّح بها المنادون بنظرية المؤامرة بحماسة فائقة هي قدرة بعض هذه الروايات على التنبؤ بالأحداث المستقبلية وبطريقة تثير العجب والدهشة؛ وأفضل الأمثلة على ذلك بالطبع رواية بول إرْدمَن التي صدرت في منتصف السبعينيات بعنوان : انهيار عام 79،[42] وأحدثت ضجة هائلة، كما حققت مبيعات ضخمة؛ والقصة في عمومها هي أن القوات العسكرية لإيران –في ظل نظام الشاه– هاجمت حقول النفط في جنوبي العراق والخليج والسعودية. وفي الرواية مقاطع تلفت النظر بما فيها من أصداء وتشابه كبير لما حدث في حربي الخليج (الحرب العراقية الإيرانية وحرب غزو العراق للكويت):

"وكان المشهد الذي تلا ذلك على شواطئ الخليج الفارسي إلى الشرق قليلاً من عبادان، مشهداً فريداً لا يمكن لمن شاهده أن ينساه... ففي الساعة الحادية عشر وخمس دقائق ملأت الجو جلجلة هائجة صادرة عن محركات الحوّامات محدثة هديراً من الضوضاء لا يصدق. ثم أخذت هذه الوحوش الآلية بالارتفاع البطيء، بينما كان ضغط الهواء يزداد في أسفل الناقلات. ثم بدأت تبتعد عن الشواطئ بتشكيلات خماسية إلى مياه الخليج الفارسي الضحلة محدثة سُحُباً متتالية من الضباب والرذاذ... وبعد ساعتين فقط بدأت [تلك الحوّامات] تفتح سلالمها على أرض صلبة وراء خطوط القوات العراقية، وفي

---

40 يجري الإعلان عن مثل هذه المعلومات أحياناً (ربما لأغراض تجارية) على الغلاف الخارجي لمثل هذه الروايات.

41 انظر: Earl Davis: "Haward Hunt and the Peter Ward CIA-Spy Novels," Kansas Quarterly, X, Fall, 1978, 85-95.

42 انظر: Paul Erdman: The Crash of 79, London: Secker & Warburg, 1976.

الوقت نفسه بدأت القوة الرئيسة من المدرّعات الإيرانية التي كانت قد تجمّعت بين ديزفول والأهواز تشن هجوماً أمامياً من جهة الشرق، فكانت المجزرة! وجنحت الغالبية العظمى من القوات العراقية إلى الاستسلام في وقت مبكر من بعد الظهر.

وقضى الرجال ساعات المساء من يوم 19 آذار في مقرّهم في خُرَمْشَهْر يخططون لتجميع قواتهم ولعملياتهم في اليوم التالي على الخريطة الكبيرة للمعارك التي كانت تغطي الحائط الشرقي للمقر. وتتبعوا أهدافهم لليوم التالي الواحد بعد الآخر: الكويت، البحرين، قطر، أبو ظبي، دبي، عُمان. واكتملت خططهم قبيل حلول الساعة الثامنة...".[43]

ثم:

"**خلال ساعة واحدة كان الرئيس الليبي العقيد القذافي قد أرسل مائة وعشرين طائرة ميراج 3 المقاتلة القاذفة إلى السعودية، وكذلك كانت مصر قد بدأت رحلاتها الجوية الأولى إلى الرياض... وتعهد ملك الأردن أن يقود بنفسه كتيبته المسلحة ضد العدو عبر الصحراء. وأعلنت الولايات المتحدة أن الأسطول السابع قد بدأ تحركه نحو الخليج بأقصى سرعة، وأن المباحثات جارية مع الحلفاء في حلف شمال الأطلسي حول إمكانية استخدام الجيش الثالث المرابط في ألمانيا الغربية...".** [44]

وتضيف الرواية:

"**وبدأ العسكريون الأمريكيون يصلون إلى عاصمة السعودية بمعدل ثلاثة آلاف رجل في الساعة، وكان الاعتقاد السائد أن بمقدورهم إعادة التوازن إلى المنطقة بأسرها في غضون أيام قليلة...".**[45]

وعلى الرغم من أن الأيام الأربعة التي تصورها رواية انهيار عام 79، تختلف في نواحٍ كثيرة عن حربي الخليج الاثنتين، إلا أن هناك تشابهاً ملفتاً للنظر فيما بينها، إذ نجد أن الخريطتين اللتين رسمتا على الغلافين

---

43 المرجع نفسه، ص ص318-319.

44 المرجع نفسه، ص340.

45 المرجع نفسه، ص347.

الأمامي والخلفي للكتاب تبدوان وكأنهما خريطتان للقوات العراقية في هجومها على إيران عام 1980، وذلك إذا ما غيرنا اتجاه الأسهم من الغرب إلى الشرق، وثمة تفاصيل أخرى تذكّرنا بالقتال الذي دار عام 1990.

أما رواية **روبرت لورنس هولت: الجمعة الحزينة،**[46] التي نُشرت في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1987، فإن الجزء الذي تفتتح به مذهل بشكل خاص إذ لا يحتاج المرء إلا أن يبدل كلمتي "إيران والإيرانيين" بكلمتي "العراق والعراقيين" ليصبح الوصف أقرب ما يكون لما حدث في الثاني من آب 1990.

"بعد أن قُتل عبثاً مليون ونصف من الجنود (وكان خُمسهم صِبْية دون الأربع عشرة أو الست عشرة من العمر من الحرس الثوري للخميني) في حرب استنزاف دامت اثني عشر عاماً ضد إيران، تتخلى القوات العراقية عن ميناء البصرة الاستراتيجي وتنسحب انسحاباً غير منظم نحو الشمال.

وبعد أسبوعين يحتل الإيرانيون دولة الكويت الغنية بالنفط، وعند منتصف نيسان يحتشد الجيش الإيراني على الحدود الكويتية السعودية، ولكن تقدّمه يتعثر بصورة مؤقتة، نتيجة تفشي الإنفلونزا بين الجنود. ولمواجهة الجيش الإيراني في الكويت المؤلف من 300.000 رجل، سيّرت السعودية 45.000 رجل (أي ثلاثة أرباع قواتها الأرضية) نحو حدودها الشمالية. ويعزِّز القوات السعودية قوّات "درع شبه الجزيرة" التي يبلغ تعدادها 9.000 رجل في هيئة فرق من الوحدات العسكرية غير محكمة التنظيم من دول الخليج الفارسي المجاورة".[47]

ومن روايات الإثارة المتعلقة بالخليج التي ظهرت قبل حرب الخليج الثانية روايتا **خليج**[48] و**الخليج**.[49] وقدمت الأولى على أنها "قصة لا تمتّ إلى الخيال"، بل هي قائمة "على حدث حقيقي"، كما وُصِفت بأنها تصوّر "الخليج بتفاصيل تنبض بالحياة بشكل لم يسبق له مثيل، حيث تتواصل الأهواء القديمة وسط أنظمة

---

46 انظر: Robert Lawrence Holt: Good Friday, London: W. H. Allen, 1988.

47 المرجع نفسه، ص11.

48 انظر: John Burrowes: gulf: At Last the Real Story of Arabia as It Truly is in the Eighties, Edingurgh: Mainstream Publishing, 1988.

49 انظر: David Poyer: The Gulf, New York: Saint Martin's, 1990.

الحكم الإسلامية، ويجري التنافس على السلطة بين القوى العظمى الحاسدة والمتطرفين الدينيين دون انقطاع".[50] أما الرواية الثانية فتصف هجوماً أمريكياً مدمراً على جزيرة **أبوموسى** رداً على "اعتداء شرس" أدى إلى غرق مدمرة تابعة للولايات المتحدة. وقد كتب أحد النقّاد في صحيفة "**أوكالاستار بانر**" ما يلي: "تقترب عناوين الصحف اليوم بصورة تثير الرعب مما جاء في هذه الرواية".[51]

وما زالت تتزايد في الصدور أعداد الروايات التي تدور حول حرب الخليج، أو التي لها علاقة بها، بأقلام كتّاب يحققون أكبر المبيعات.[52] وفي رواية "**الشرف عند اللصوص**" يخسر الرئيس الأمريكي **جورج بوش** الانتخابات الرئاسية، وتنهزم رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر في انتخابات حزب المحافظين البريطاني، ويخرج الرئيس السوفييتي **غورباتشيف** من السلطة في روسيا، لنجد أن **صدام حسين** هو الوحيد الذي بقي في السلطة بعد الحرب، حيث يخطط "لإذلال الشعب الأمريكي" بالتواطؤ مع زعيم مافيا أمريكية، ولكن الجهود المشتركة لأحد عملاء الموساد مع أستاذ في جامعة ييل الأمريكية تحول دون ذلك.[53] وفي

---

50 انظر صفحات المقدمة لكتاب Burrowes المذكور في الهامش 48.

51 انظر صفحات المقدمة لكتاب Poyer المذكور في الهامش 49.

52 في عام 1984 (قبل سنوات من حرب الخليج الثانية ودخول الجيش العراقي إلى الكويت) أخرج فيلم بعنوان "الدفاع الأمثل" Best Defence بطولة إدي مرفي وددلي مور يصور قوات أمريكية إلى جانب كويتيين يحاربون العراقيين في الكويت ويعتمد الفيلم على رواية: .Robert Grossbach: Easy and Hard Ways out

53 انظر: .Jeffrey Archer: Honour Among Thieves, London: Harper Collins, 1993
ونجد دليلاً آخر على انتشار الرواية الشعبية، فيما أعلن مؤخراً من أن جيفري آرجر (وهو مؤلف بريطاني تتمتع رواياته بشعبية كبيرة جداً وكان نائباً لحزب المحافظين سابقاً) قد حصل على 32 مليون جنيه استرليني من صفقة لإعداد ثلاث روايات للتلفزيون. وقد سخر منه ومن مستوى رواياته بشكل لاذع الكاتب المشهور برايان أبل فوصفه بأنه "وصمة تُشين الحياة المتحضرة"، وأنه شخص "يتمتع بجهل شديد" وأن رواياته "تقلب القيم الحضارية". ومع ذلك تزداد شعبية آرجر بين جماهير القراء. ومن أجل تلبية مثل هذا الذوق الشعبي، لم تسلم حتى مسرحيات شكسبير وغيرها من روائع الأعمال الدراسمية من أن تعرضها فرقة شكسبير الملكية في شكل ملاحم للجنس والعنف تشابه ما تخرجه هوليود لاجتذاب جماهير الشباب. انظر: Brayan Apple: "Lord of the Nation's Bad Taste", The Independent, Septermber 5, 1995.
وقد أخرجت فرقة شكسبير الملكية مؤخراً ملصقاً إعلانياً عن مسرحية كوريولانس يصور وجهاً غارقاً بالدماء مع شعار يقول: "قاتل بالفطرة كذلك"، في ثورية ساخرة عن فيلم عنف من إخراج أوليفر ستون. ويستخدم أسلوب الإثارة هذا في الإعلان عن روائع أدبية كثيرة أخرى، من ذلك ملصق إعلاني عن رواية فاوست للألماني جوته يوحي "بدغدغة" تثيرها مشاهد التعري.
انظر مقال: David Lister: "The Bard: Meets Pulp Fiction", The Independent, September .9, 1995

"**الدريئة**"[54] تحاول جماعة من منظمة SAS السريّة بالتعاون مع "قوة دلتا"، بنجاح باهر، تحييد "الخيارات المفزعة القاتلة"، قبل أن يتم استخدامها ضد الحلفاء. أما في رواية **قبضة الله**،[55] فيخاطر رائد في منظمة **SAS** بالتسلل متنكراً في زيّ ضابط عراقي إلى ما وراء الخطوط العراقية ليصل إلى المواقع السرية لسلاح العراق النووي كي يدمّره قبل أن يفتك "بمئات الألوف" من الجنود البريطانيين والأمريكيين. ويطلق المؤلف على هذا السلاح اسم "قبضة الله".[56]

أما رواية **فورسايث** الأخرى **المفاوض**،[57] فتصف أحداثاً ستقع في المستقبل، وفيها تدرك القوتان العُظمَيان أن احتياطي النفط سوف ينضب فتقرران إخضاع السعودية لسيطرتهما المباشرة. أما الرواية الأكثر تنبؤاً فهي رواية **التمثال الملحد**،[58] التي تسلّمها الناشر في الأول من آب عام 1990، وهي تصف غزواً عراقياً للكويت وصراعاً دامياً في الخليج.

وقد تحدثت الناقدة **فرانسس هاردي** إلى المؤلف **غوردن توماس** الذي تصفه بأنه "كاتب ذو لمسة روحية خارقة". وتحت العنوان المثير: "روايات هذا الرجل تتحقق فعلاً"، تؤكد **هاردي** أن تنبؤات **توماس** من

---

54 انظر: Terence Strong: Stalking Horse, London: Hodder & Stougton, 1993؛
وهذا أيضاً كاتب تحقق رواياته أفضل المبيعات، ويقال إن لديه معلومات عن الشرق الأوسط "من مصادرها الأصلية"، كما يقال إن اهتماماته الرئيسة تشمل العلاقات الدولية والسياسية والشؤون العسكرية والقوات الخاصة. وموضوع روايته هذه يمتد ليشمل رواية أخرى وفيلماً واحداً على الأقل بعنوان The Finest Hour أنتجته شركة القرن الواحد والعشرين.
وفي روايته الرهينة الخامسة (The Fifth Hostage, London: Hodder & Stoughton, 1983) تدور المشاهد في إيران عام 1980. وتتحدث هذه الرواية عن مهمة تقوم بها منظمة SAS في إيران لإنقاذ رهينة بريطاني ورفيقته "ذات الجمال الفتان" مهما كلف الأمر، حيث إن المعلومات السرية التي يحاول الإيرانيون الحصول عليها يمكن أن "تلحق الدمار الشامل بحلف الناتو". وفي رواية صراع الأسود (Conflict of Lions, London: Hodder & Stoughton, 1983) نجد وصفاً من الداخل "لعملية سلمية" تقوم بها منظمة SAS، لكنها تفاجأ بمواجهة "إرهابيين ليبيين". أما روايته اللاحقة بعنوان أبناء السماء، (Sons of Heaven, London: Hodder & Stoughton, 1990) فهي تدور حول الموضوع نفسه تقريباً، حيث نجد أن "جمعية أبناء السماء" هم سيف الإسلام السري الجديد، "الذي ترعرع في إيران بعد الثورة ليعمل على الانتقام من أعداء الإسلام" عن طريق الاختطاف والاغتيال.

55 انظر: .Frederick Forsyth: The Fist of God, London: Bantam Press, 1994

56 هذه العبارة مرسومة بالعربية على غلاف الكتاب.

57 انظر: .Frederick Forsyth: The Negotiator, Lndon: Bantam Press, 1989

58 انظر: .Gordon Thomas: The Godless Icon, London: Chapman, 1992

مثل "غزو العراق للكويت" "ليست تكهّنات غامضة مثيرة، بل هي تكهّنات عالمية كبرى ولديها مقدرة على التحقق". وترفض **هاردي** آراء المتهكّمين الذين ينظرون إلى هذه الظاهرة على أنها محض نظرة ثاقبة في سياسة الشرق الأوسط من كاتب صحفي قضى فيها أربعين عاماً يعمل مراسلاً صحفياً".[59]

ومع ذلك، هل يمكن لتلك التكهنات أن تكون أكثر من نظرة سياسية ثاقبة لصحفي محنَّك؟

لا أعتقد ذلك، وأرى أنه في غالبيتها قراءة بارعة واسعة الخيال للأحداث الماضية والراهنة، إذ إن العرب والمسلمين اليوم، وقد فقدوا القوة وروح المبادرة التي كانت لأسلافهم، أصبح من السهل على الآخرين قراءة ما يدور بخلدهم. ولا يقتصر الأمر على سهولة قراءة أفكارهم، بل إن جميع المعلومات التي لديهم متاحة لكل من هبّ ودبّ سواء كانت تلك إحصاءات أساسية، أو معلومات مالية، أو عسكرية، أو اجتماعية، أو علمية.

ومن الطبيعي أن نتوقع من الكتّاب والروائيين –المطّلعين منهم خاصة– أن يتناولوا موضوعات وأجواء يعرفونها حق المعرفة، إذ إن ذلك يجعل القصة أكثر حيوية ومصداقية ولو بصورة ظاهرية. فإذا ما أضيفت النظرة الثاقبة إلى تلك المعرفة حصلنا على وصفة ناجعة تماماً. أوَليس ما قاله أحد النّقاد من أن "عناوين الصحف اليوم تقترب بصورة تثير الرعب مما جاء في هذه الرواية" مدعاة للفخر المهني لكاتبها وإن لم يكن فخراً أخلاقياً.

ولكن لنُلْقِ الآن نظرة أكثر تدقيقاً على العلاقة بين الخيال والواقع. ففي معالجته للبيئات التي أتى منها بعض كتّاب روايات الجاسوسية يرى **أنتوني ماسترز** أن بعضهم "دخلوا ميدان الاستخبارات تهرّباً من مشكلاتهم ومسؤولياتهم العاطفية، بينما اندفع نفرٌ قليل منهم بوحي من أفكار الولاء والصراع بين الخير

---

[59] انظر:

Frances Hardy: "This Man's Novels Do Come True", Daily Mail, August 5, 1992.

يشير جزء من الرواية إلى أن الباب نيقولا السادس يجهز بعناية خطة ورؤية (تدعى عملية الصليب المقدس) للوصول إلى التوفيق النهائي بين المسيحية واليهودية والإسلام، وذلك بالقيام برحلة سلام إلى الأراضي المقدسة أولاً ثم إلى موسكو، لكن قوات المسلمين "المظلمة الهوجاء" لا يعجبها ذلك وتعمل جاهدة لإحباط المهمة، فتسبب في مذبحة وتكاد تشعل حرباً عالمية ثالثة!

والشر".[60] ويمكن للمرء أن يعمّم هذه النزعة من المجال الشخصي إلى المجال القومي والوطني ليستنتج أن مثل هذه "الطموحات" –أو ربما "تضليل" الذات– تفعل فعلها كذلك بين الثقافات والأمم.

أما لماذا تم اختيار الإسلام وبعض مقدّساته للتشهير الروائي، ولماذا استُبدلت "بالعدة الجاهزة لتصوير العربي في التلفزيون" (وهي العبارة الشهيرة التي استخدمها **جاك شاهين**)[61] "العدة الجاهزة لتصوير المسلم في الرواية"، فإن **دانيال إيسنزمن** "يشرح بعض الأسباب وراء ذلك الاتجاه في مقالة عنوانها "الشياطين وكلاب الحرب الجديدة"، إذ كتب في عام 1990 يقول:

"كان لرواية الإثارة أثرها الخاص في مسيرة الحرب الباردة: فقد حذّرتنا من مخاطر الماضي والحاضر، وأطلقت العنان للخيالات السوداء حول إمبرطوريات الشرّ والمؤامرات الستالينية.

والآن أخذت الجدران في الانهيار، كما ظهرت الأنوار على المسرح الذي كان مظلماً، وانتهت المسرحية التي طالت، أو هكذا يبدو. وبينما كان عملاء الروس الأشرار يثيرون الرعب فيما مضى، أصبحوا الآن موضع إشفاق.

إذن ماذا نفعل [نحن كتاب الروايات] الآن؟ خصوصاً أولئك الذين يعتمدون منا في معاشهم على الإثارة وبريق الخداع الدولي؟ وأين يمكننا أن نجد النصوص والشخصيات التي لا بد أن يعتمد عليها استمرار وجودنا ومتعة قرائنا كذلك؟

أخشى أن تكون الإجابة غاية في البساطة، حيث أن الاحتكاك القديم بين الشرق والغرب حول الرأسمالية والاشتراكية قد بدأ بالتراجع لتحلّ محلّه حالة من التوتر المتجدّد بين الأعداء الأكثر قدماً: الغرب (بما في ذلك روسيا) من جهة والإسلام من جهة أخرى...

60 انظر: ماسترز، المصدر السابق، 2.

61 انظر: Jack G. Shaheen: they TV Arab, Bowling Green: Ohio StateUniversity Popular Press, 1984.

ومن جانبنا فقد تعزز ذلك بشعورنا بتهديد الخطر الإسلامي [حيث نواجه] إلهاً شديد القسوة ونبياً منغمساً في الملذات، ومتعصبين ملتحين وشيوخ نفط وآيات الله وإرهابيين.

ومن المحتّم أن يتوجَّه كتّاب الروايات المثيرة بأعداد متزايدة للتعامل مع موضوع الغرب، وهو يتحصّن جنباً إلى جنب مع الدولة السوفييتية المتداعية التي تهددها من الداخل والخارج الجماعات الإسلامية المقاتلة. وقد زادت كثيراً قائمة هؤلاء الروائيين: جيمز كلافل في روايته "الدوّامة" وكن فوليه في "على أجنحة النسور" وليون يورس في "الحاج" وأ.ج. كوينل في "المهدي" وروايتين من تأليفي بعنوان "القاتل الأخير" و"الحرم السابع".[62]

وليس من الممكن أن تفوت ملاحظة الاتجاه الجديد على دوجلاس هيرْد بصفته وزيراً أسبق للخارجية البريطانية وروائياً بحق، فقد كتب في مراجعته لرواية جيرالد سيمور بعنوان إصابة الهدف ما يأتي:

"يصف السيد سيمور توجّهين: أحدهما مألوف والآخر جديد، ولكن من المؤكد أن هذا التوجّه الجديد سيطلع علينا في رواية بعد رواية. فبينما تفقد رواية الإثارة التقليدية المتعلقة بالحرب الباردة مصداقيتها، سنجد أنفسنا حتماً معرّضين إلى عدد لا يحصى من الملالي وآيات الله، مع أبطال وأشرار يرتادون الخليج والحدود التركية جيئةً وذهاباً، التصميم نفسه الذي كانوا عليه وهم يعبرون حائط برلين".[63]

---

62 انظر: Daniel Easterman: ‘‘Demons and the New Dogs of War’, The Independent, Novermber 10, 1990.

ومما يجدر ذكره أن الروس لم يغيبوا تماماً عن المشهد وبعبارة أخرى، بدأوا يعودون شيئاً فشيئاً، ويرجع السبب الرئيس في ذلك إلى بروز الزعيم القومي المتطرف زيرينوفسكي، وهذا التطور ملأ بالسعادة كتّاب روايات القضايا الدولية المثيرة حيث يمكن أن يفتح أمامهم آفاقاً جديدة لاختيار موضوعات وشخصيات لرواياتهم. انظر:

‘‘Summer’s Tide Rolls In’’, Time Magazine, May 15, 1995, p65.

63 كما وردت في كتاب: Donald McComic and Katy Fletcher: Spy Fiction: A connoisseur’s Guide, Oxford: Facts and File, 1990, p.234.

وسرى الشعور بهذا التوجه الجديد حتى إلى القرّاء العاديين إذ كتبت قارئة اسمها **إليزابيت هكسلي** إلى محرر صحيفة **صنداي تلغراف** ما يأتي:

"لا أعتقد أن على السيد إريك ميجر من دار نشر "هودر و ستاوتن" أن يبحث طويلاً كي يعثر على "شر جديد" ليتناوله كتّاب روايات الجاسوسية، كما توحي به مقالة الأحد الماضي حول مأزق "جون لوكاريه". فلقد كنت أتساءل عما سيفعله هو وزملاؤه من الكتّاب الآن بعد أن أطلق الزعيم السوفيتي غورباتشيف النار على خيولهم وأرداها قتلى.

[إن الشر الجديد] هم الأصوليون الإسلاميون، أولئك الذين أحرقوا الكتب في مدينة براد فورد. ويجب أن لا ننسى أن أجدادهم قد فتحوا إسبانيا بأسرها والبرتغال ولم يُصدّوا عن احتلال باقي أوربا إلا عند بوابات فييناّ".[64]

وفي العام نفسه الذي كتبت فيه السيدة **هكسلي** رسالتها إلى **الصنداي تلغراف** (وهو عام 1989) أجرت **صحيفة التايمز** اللندنية استفتاءً حول التوقعات الشعبية للألف عام القادمة، حيث أجاب 49٪ من المستفتين عن السؤال الآتي: "من يُحتمل أن يكون أعداء بريطانيا عام 2000؟" بأن الإسلام سيكون ذلك العدو، وأتى بعد ذلك الروس بنسبة 11٪. وبعد عام واحد علق **د. و. جونسون** على ذلك الاستفتاء في مقال له بعنوان "عدو ملائم للصليبيين" في حصيفة **الإندييندنت** اللندنية بما يأتي:

"من غير الممكن أن نسفّه رأي الذين شكّلوا 49٪ من المستفتين، أولئك الذين اعتقدوا أنَّ الإسلام سيكون عدوّنا، ونصفهم بأنهم جهلة متعصبون. إذ يمكن القول في الحقيقة: أنهم كانوا على جانب كبير من نفاذ البصيرة والدقة، فبعد عام واحد من ذلك الاستفتاء وقف الغرب متحفّزاً للحرب ضد إحدى الدول الإسلامية (ولا يعير الرأي العام أيَّ اهتمام إلى حقيقة أنّ صدام حسين يرأس نظاماً علمانياً يباح فيه بيع المشروبات الروحية. ولمشاعر التحامل هذه تأثير كبير على المستويين السياسيّ والعسكريّ".

64 انظر: The Sunday Telegraph, February 5, 1989.

ويختم **جونسون** مقالته بشيء من التهكم اللاذع قائلاً:

"**ليس من الممكن على الأقل في الغرب شن الحروب الحديثة دون تأييد شعبي**".[65]

وهكذا يبدو أننا عدنا للتسكّع في "شارع المؤامرات". ورغم ذلك فإن التجربة قد تحثّنا على إمعان النظر لنعرف كيف "تُوَلِّد الحقائق الخيال ويولّد الخيال الحقائق"،[66] على حد قول **دونالد ماكورمك وكيتي فليتشر**، إذ إن من المؤكد أن الموضوع جدير بالمزيد من الاستقصاء والدرس والمراجعة.

كُلِّفت قبل عدة سنوات بتقويم مقالة للنشر في: **المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية**،[67] وكانت تلك المقالة بعنوان "صورة المسلم في الرواية الأميركية المعاصرة وأثرها في القرارات المتعلقة بالأرض المقدسة في فلسطين".

لقد شعرت حينذاك بأن المقالة كانت على شيء من المغالاة في حماستها وطموحها، ذلك أن الروايات الإحدى عشرة التي نشرت ما بين عامي 1977 و1988، وكانت موضع التركيز في المقالة، لم يكن ممكناً لها أن تؤثر في قرارات الإدارة الأمريكية حول قضية بهذا التعقيد وهذه الأهمية مثل قضية فلسطين. فمن المؤكد أن مثل هذه السياسات كانت قد رسمت قبل ذلك بكثير ولم تتغير في جوهرها ألبتّة. ورغم ذلك فثمة معلومات كافية تبيّن أن بمقدور الروايات الشعبية –على المدى القريب والبعيد، تسندها في ذلك شروط مؤاتية أخرى– أن تحدث تأثيراً في السياسة، وذلك عن طريق صياغة الشعور العام أو إعداد الرأي العام لما قد يتخذ من إجراءات أو يُرسم من خطط. كما يمكن لهذه الروايات أن تُولِّد مشاعر جديدة من التحامل أو تقوّي أخرى قديمة، وأن تساعد في استقطاب التأييد الشعبي لسياسات أو إجراءات معينة، أو أن تساعد على الأقل في التخفيف من أية معارضة محتملة، تؤازرها في ذلك كله وسائل الإعلام الأخرى. وليس لهذا أن يتم

---

65 انظر: R. W. Johnson: "A Suitable Enemy for Crusaders", The Independent on Sunday, December, 30, 1990.

66 انظر: McCormick and Fletcher، المرجع السابق، ص297.

67 American Journal & Islamic Sicial Science. تصدر بالتعاون بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية.

بالضرورة عن طريق التواطؤ والاتفاق المباشر، بل إنه يغل بأن يتم عادة "باتفاق غير مباشر" -بل ربما غير واعٍ- تحركه المصلحة المشتركة بين الكتّاب والناشرين وغيرهم.

ومع ذلك فإن **كرانت هوكو** يبحث مسألة التأثير السياسي لروايات الإثارة إذ يعتقد أنه ما دامت "الأفكار السياسية المباشرة لا تسترعي الانتباه دوماً حتى فيما بين الأقلية النشطة والمهتمة بالسياسة، فإن ثمة حاجة لمواهب وفرص نادرة أخرى؛ فالدعاية السياسية المباشرة ليس لها من تأثير يذكر خارج الدائرة المحدودة للعاملين في الحزب وغيرهم من الملتزمين".[68]

ثم يزيد **هوكو** على ذلك أن روايات الإثارة لا تروج بين عامة الناس وحسب، بل تتعداهم إلى أصحاب القرار السياسي وغيرهم كذلك:

"كان بولدوين [وهو رئيس وزراء بريطاني سابق] يستمتع جداً بأعمال بوكان، وكان الرئيس كِنِدي يواظب على قراءات أعمال الروائي فلمنك، كما كان يطيب للكثيرين من الساسة الأقل شهرة أن يصرّحوا في مقابلاتهم عن إدمانهم هذا الشكل البريء والرائج من أشكال المتعة والاسترخاء".[69]

وإنه لما يبعث على الدهشة في نظر هوكو أن التأثير السياسي لروايات الإثارة لم يحظ "باهتمام واسع" من الباحثين والنقاد قبل عام 1972، إذ يؤكد أن روايات الإثارة (والأنماط الأخرى للروايات الشعبية) تقدم فرصاً أكبر من أية طريقة من الطرق التقليدية لنشر الأفكار السياسية.[70] ويزيد على ذلك بقوله: "إن القراء يعتادون على الوثوق بما يقدّمه لهم كتّابهم من معلومات حيث إنَّ ذلك ضروري لتمتعهم بالقصة". كما يؤكد أن القراء الذي يُؤثرون "التمتّع بالقراءة" يكونون دائماً تحت مثل هذا التأثير:

"تبدو روايات الإثارة لأولئك القراء أقل ريبةً، فهي تمثل مصدراً ناجعاً لمتعة الهروب التام [من الواقع]. وهذا بالضبط سبب اهتمام الداعية والمروج الحديث لهذه الروايات حيث لم يعد يحتاج إلى أن

---

68 انظر: Grant Hugo: "The Political Influence of Thriller", Contemporary Review, December, p284-5.

69 المصدر نفسه، ص285.

70 المصدر نفسه، ص289.

يُنفّر جمهوره بالدعايات المبتذلة المباشرة، سواء كان يسعى لترويج الدخان أو للدعاية لأحد السياسيين، فهو يستطيع [باستخدام الرواية] إبراز "صورة ما" عن طريق مخاطبة العواطف ومشاعر التحامل والرغبات الملحة التي لا تظهر بشكل واعٍ أو صريح في كثير من الأحيان".[71]

ويتساءل **هوكو** كذلك إن كانت "الروايات البوليسية" الأصلية التي يعرضها التلفزيون في شكل أفلام أو مسلسلات تدين لدعم أو "مساعدة رسمية" لما فيها من معلومات حقيقية وبما يؤكد أنه يمكن أن تقدم للباحث الاجتماعي موضوعات ومجالات مهمة لأبحاثه.[72]

ومن الطبيعي أن يرى المؤمنون "بنظرية المؤامرة" الأمر على هذا النحو: لأن للروايات قوّة مؤثرة في الرأي العام والأحداث المستقبلية، فإن كتّابها، في أقل تقدير، "يساعدون" –عن وعي أو عن غير وعي– في خلق أجواء يتقبّل فيها الجمهور بسهولة أيَّ عمل موجّه ضد أي مجتمع أو دولة إسلامية، سواء في ذلك ما كان من هذه الدول علمانياً أو معتدلاً أو "أصولياً."

وقد يشير بعضهم إلى الادّعاء المثير بأن **وليم شكسبير** نفسه كان على صلة بالاستخبارات البريطانية، وربما يكون قد اغتيل بسبب هذه العلاقة.[73]

إن ما يجب علينا أن نتناوله وبشكل جاد في دراسات قادمة، فضلاً عن العلاقة بين الخيال والواقع، هو استقصاء العلاقة أو التوتر القائمين بين الكتّاب المبدعين والمؤسسة السياسية، وهو –قطعاً– موضوع من

---

71 المصدر نفسه، ص285.

72 المرجع نفسه، ص289. انظرأيضاً دراسة مهمة عن العلاقة بين الرواية والسياسة، وذلك في كتاب:
Michael Hanne: The Power of the Story: fiction and Political Change, Oxford: Berghahn Books, 1994.
يقول أحد مراجعي الكتاب: "والقول بأن القصة يمكن أن يكون لها التأثير الذي كان بود سارتر أن يسبغه على ما كتبه يقوم هنا على دليل أكثر صلاة مما يوجد في أي موضع آخر". انظر:
"Great Stories, Real Lives", Times Higher Edutcation Supplement, June 23, 1995.

73 انظر: Graham Philip and Martin Keatman: The Shakespeare Conspiracy, London: Century, 1993.

الضروري بحثه، سواء تعلق الأمر بالنقد الشكسبيري الجاد أو بالأدب العربي أو الإسلامي، أو أي أدب آخر، قديماً كان أو معاصراً.

وثمة مجال آخر للبحث، إذ علينا أن نستقصي كيف يتشكل ويتطور "الذوق الشعبي، وإلى أي حدّ هو شعبيٌّ من غير زيف أو إيحاء، أم أنه على النقيض من ذلك قد فُرِضَ على المجتمع ربما بشكل غير مباشر من قبل الأجهزة السياسية أو الدوائر التابعة لها في هذا العصر الاستهلاكي.[74] وعلى سبيل المثال: لِمَ كان يتوجّب على كتّاب الرواية الشعبية أن يتناولوا قضية الجهاد الإسلامي –من بين كل القضايا– بالتعاطف والتفهّم والاحترام عندما احتلها السوفييت؟ ماذا عن الضمير؟ أم أن هذا شأن قد بَطل ولم تعد له صلة بعالم طغت عليه المادة حيث لا بدّ للكتّاب من كسب عيشهم، ربما ليس بالتواطؤ مع ناشريهم، بل على الرغم منهم في بعض الأحيان؟ إلى أي مدى يمكن لكاتبة مثل **ثلما سانغْسْنز في روايتها الحجاب الممزّق**[75] أو **جيورا ودايان شيمس في رواية صدع في بيت الله**،[76] أقول إلى أي مدى يمكن لهؤلاء، كلٌّ حسب أسلوبه وفي إطار الفن الذي يكتب فيه، أن يقحم على الأوضاع العربية وخاصة السعودية والخليجية عناصرَ ضارة، أو على الأقل بعيدة الصلة بهذه الأماكن، مقتبسين إياها من المسلسلات التلفزيونية التي نُسجت في الغرب

---

74 يبيّن فيلم تلفزيوني وثائقي مثير أن الفن الحديث نفسه كان "سلاحاً بيد وكالة المخابرات المركزية"، إذ إن الفن والثقافة بوجه أشمل صارا جزءاً من أسلحة الحرب البادرة منذ عام 1947. فالمنظور الأمريكي كان يهدف إلى إظهار "أن الولايات المتحدة معنية جداً بحرية التعبير" وأنها أكثر تقدمية وتطلعاً مما يدعيه المنظرون ونقاد الفن من الاشتراكيين. وهذه الحملة الخفية التي قامت بها الوكالة –على ما يسندها من دعم مادي كبير– قد نجحت في جعل التعبيرية التجريدية حركة فنية سائدة في سنوات ما بعد الحرب، إذ وفرت لها بروزاً في المطبوعات الشعبية والمتخصصة، وفي البنوك والمطارات وقاعات البلديات والمعارض الكبرى والفنادق في جميع أنحاء العالم تقريباً، انظر مقالة:

Frances Stonor Saunders: "Modern Art Was a CIA Weapon", The Independent on Sunday, October 22, 1995.

وقد رويت القصة الكاملة عن العلاقات بين وكالة المخابرات المركزية ورواج الفن الحديث في برنامج "الأيدي الخفية"، وذلك على القناة الرابعة للفزيون البريطاني يوم 29 تشرين الأول 1995.

75 وصفت هذه بأنها "القصة الحقيقية" لحياة فتاة باكستانية اسمها كلشان إستير اعتنقت المسيحية.

Thelma Sangster: The Torn Veil, Basingstoke: Marshalls Paperbacks, 1984.

76 انظر: Giora Shamis and Diane Shamis: A Crack in the House of God, London: Weidenfeld & Nicolson, 1983.

مثل مسلسلي **دالاس** و**المهمة المستحيلة**، هذا عدا عن إقحام غير ذلك من الهواجس والخيالات الجامحة، مشوِّهين بذلك الواقع، في مكان ما من العالم دون أدنى شعور بالإثم؟

وأما الرأي القائل بأن ثمة عواقب خطيرة لمثل هذه الروايات فهو مسألة مهمة جداً رغم أن الخلاف ما زال قائماً حول ما قد ينجم عن مشاهدة أشرطة الفيديو من تشجيع على حوادث الاغتصاب والعنف في الشوارع. ويمكن للمرء أن يشير إلى رواية **الأحد الأسود**[77] حيث يستخدم إرهابيون من الشرق الأوسط عميلاً أمريكياً ليفجّر بالون مراقبة فوق مدرّج رياضيّ أثناء مباريات **سوبر بول** مستهدفاً بذلك قتل ما يربو على 100.000 شخص من ضمنهم الرئيس الأمريكي. وتحوّل هذا الكتاب الذي حقق أفضل المبيعات في أواسط السبيعينات إلى فيلم من أكثر الأفلام رواجاً، أخرجه "**جون فرانك نهايمر**" ومثّل فيه **روبرت شو وبروس ديرن ومارثه كلر**. إلى هنا والأمر على ما يرام غير أنه خلال حرب الخليج الثانية، وفي السادس والعشرين من كانون الثاني عام 1991، كتبت **سارة هيلم** –إحدى مراسلات صحيفة "**الإندييندنت**" –من واشنطن ما يلي:

"تتركز المخاوف الآن حول مباراة الدوري الختامية في مدينة تامبا في ولاية فلوريدا، وهي قمة موسم كرة القدم الأمريكية، وستكون هناك إجراءات أمنية مشددة، ولكن مع هذا فقد وصل إلينا أن مبيعات التذاكر لم تتوقف. وقد أصدرت سلطة الملاحة الجوّية الاتحادّية أمراً بمنع الطيران على مسافة نصف ميل من المدرج، وذلك جزء من أكبر عملية أمنية أجريت ضد الإرهاب في الولايات المتحدة حتى الآن. ويقوم ما مجموعه اثنتان وعشرون دائرة مختصة بفرض النظام وتنسيق مهمة توفير الأمن والمراقبة ضد أي عملية إرهابية قد تقع في المدرج.[78]

77 انظر: Thoma Harris: Black Sunday, London: Hodder & Stoughton, 1975.

78 انظر: The Independent: "Fears of Terrorism Focuse on Super Bowl Footbal Game", January 26, 1991.

من المهم الإشارة هنا إلى عدد من التطورات التي حصلت بعد إعداد هذا البحث في مارس 1995. فعقب تفجير أوكلاهوما وبعد انحسار موجة العنف ضد المسلمين أشارت محطات CNN إلى الأثر المحتمل للروايات في الواقع. ففي الساعة الحادية عشرة والنصف بتوقيت غرينتش من مساء 26 أبريل 1995، أورد جين راندل مراسل الـCNN ما يأتي: "ثمة نظريات لا حصر لها حول الدوافع وراء تفجير مدينة أوكلاهوما، وفي مجال البحث عن الأجوبة ينظر بعض الناس في موضوعات كتاب ظهر قبل سبعة عشر عاما. ويدور الجدل

ولم تُغفل السيدة "**هيلم**" ذكر ما رُوِّج له على نطاق واسع من إمكان وجود علاقة بين الرواية والفيلم من جهة وبين ما اتُّخذ من احتياطات أمنية لا سابق لها خلال المباراة المشار إليها من جهة أخرى.

وبصورة عابرة وعلى سبيل المقارنة، يتذكّر المرء الرسالة التي كتبها شخص أطلق على نفسه اسم "**سيد من بوستن**" وتميّز بالحياد ونفاذ البصيرة، عندما كتب عن الشرق عناوين الصحف المثيرة ومشاهد قتل الأتراك

حول العلاقة بين محتويات الكتاب ومذبحة الأسبوع الماضي. يتحدث بروس مورتن من هيئة تلفزيون CNN عن المؤلف وعمّا يوحي به الكتاب". وبعد ذلك قدم بروس مورتن كتاب مذكرات تيرنر (Turner Diaries)، وهو عمل روائي صدر عن دار National Vanguard Books عام 1978 من تأليف Andrew Macdonald. أشار مقدم البرنامج إلى التشابه المذهل بين تفجير أوكلاهوما، وتفجير يتخيله مؤلف الكتاب لبناية تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي استعمل فيه الجناة نمط المتفجرات نفسه (سماد نتيرات الأمونيوم) الذي استعمل في تحضير قنبلة تزن حوالي خمسة آلاف رطل، وتسببت في قتل كثير من الأبرياء في أوكلاهوما، وقد نقلت القنبلة في الرواية (مثل قنبلة أوكلاهوما) في شاحنة ومعها جهاز توقيت. وأضاف مورتن أن هذا التشابه إلى جانب غيره في الكتاب قد جعل "كل إنسان يتساءل إن كان الذين قاموا بالتفجير في أوكلاهوما قد قرأوا ذلك الكتاب". وقد أكدت هذا التأثير مقالة بقلم نك توزيك

Nick toczek: "Make Belive World Inspires US Terror", The Independent on Sunday, August 10, 1995.

يقول هذا الكاتب "إن ما ظهر من أدلة عقب تفجير مدينة أوكلاهوما يبين ترابطاً بين المشتبه فيه ماك فيه وبين نوع من الخيال والوهم، الذي يشكل مخدراً ذا مفعول قوي يؤثر في جماعات مبعثرة وأفراد يشعرون بالمرارة، مما دفعهم نحو العرقيّة والتعصّب". وتتناول المقالة بالتفصيل كتاب مذكّرات ترنر الذي غدا "إنجيل اليمين العرقي" وتبيّن اثره في ماك فيه، ثم تذهب المقالة إلى تأكيد أنه "لو كان مفجّرو أوكلاهوما قد تأثّروا مباشرة بكتاب مذكّرات ترنر، فإنهم لم يكونوا أول من تأثّر به. فقد كان الكتاب يمثل خطة جاهزة أمام عصابة في عقد الثمانينات يقودها روبرت ماثيو الذي نفذ وعصابته عمليات تفجير وقتل وسرقة وتزييف".

وفي برنامج آخر بعنوان: وطنيون وأرباح، قدّمت CNN يوم 4 تشرين الثاني 1995، نجد تكراراً لتأكيد الأثر المحتمل لكتاب مذكرات ترنر في ماك فيه وغيره من مرتكبي أعمال العنف من قوى اليمين الأمركي. ومن المصادفة أن البرنامج قوطع مرتين لإعلان نبأ اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين على يد إيكال عامير المتطرف اليميني اليهودي. وبعد يومين من الحادث نشرت صحيفة الإندبيندنت (6 تشرين الثاني 1995) خبراً مفاده أن الشرطة قد وجدت على رفوف الكتب عند القاتل نسخة من رواية Frederick Forsyth: The Day of the Jackal.

وقد تحولت الرواية إلى فيلم كذلك. وتقدم الرواية قصة العقيد مارك رودان رئيس العمليات في منظمة الجيش السري اليمينية الذي يكتشف أن الرئيس ديجول قد تخلى في سياسته عن فكرة أن "الجزائر فرنسية" وأنه يخطط للتفاوض مع بن بلا وجبهة التحرير الوطني الجزائرية. وعندما يكتشف العقيد أن ايام الوجود الفرنسي في الجزائر قد آلت إلى الزوال يتهاوى عالمه ويصاب بإحباط شديد: ".. لم يبق [في نفسه] شيء سوى الكراهية، كراهية النظام والسياسيين والمفكرين والجزائريين ونقابات العمال والصحفيين الأجانب". بل كانت كراهيته الأشد للرئيس ديجول الذي يعدّه خائناً، لذلك يقرر اللجوء إلى قاتل إنجليزي محترف يدعى "الثعلب" للقيام باغتيال ديجول. ومع أن القاتل المحترف يخفق في محاولته، فقد يكون من المهم أن نذكر أن إيكال عامير قاتل رابين كان لديه نسخة من الرواية، وهو مثل ثعلب الرواية استخدم رصاصات أُعدّت خصيصاً للغرض.

كما صُوِّرت في الكتب الأمريكية المبكِّرة من مثل: **الرحلات الحقيقية ومغامرات ومشاهدات الكابتن جون سميث**[79] (وربما كانت هذه أول رواية إثارة أمريكية). كتب ذلك السيد يقول:

"**إن ما غُرِسَ في ذهني من مشاعر التحامل في العالم الغربي ضد المؤمنين بعقيدة محمّد جعلني أخشى آلاف الأخطار حيث لم يكن ثمة أيُّ خطر... فعندما يصل البحّار إلى ذلك الجزء من آسيا الذي يستوطنه الأتراك، يمكنه أن يدفن جميع مخاوفه بكل أمان، وأن يبقى مطمئناً. فإنه رغم بعده عن أي بلد مسيحي، سيجد هناك جميع ما لدى المسيحيين من فضائل مع القليل فقط من رذائلهم**".[80]

وقد كتب أمريكي آخر اسمه سايرس هاملن باللهجة نفسها حول التأثير الخبيث للصحف والنشرات وكتب الرحلات ما يأتي:

"**لدينا جميعاً نزعة نبيلة وطبيعية لتصديق ما نقرأ أو نسمع، ولكني عندما أشرع في قراءة أنباء المشرق، أدعو في سرّي دوماً: يا إلهي امنحني القدرة على عدم تصديق ما أقرأ**".[81]

خاتمة: هل من سبيل للتجاوز؟

---

79 انظر: The True Travels, Adventures and Observations of Captain John Smith in Europe, Asia Africa, and America from Anno Domine: 1593 to 1629, London, 1630.
يوجد في هذا الكتاب ما لا يقل عن ثلاثة رسوم تمثّل الجملة الصليبية التي قام بها الكابتن سميث ضد الأتراك والتتر، وتشبه كثيراً مغامرات جيمس بوند وشوارتزانيكر: وتمثّل إحدى هذه الصور الكابتن وهو "يُساق أسيراً" إلى باشا تركي في بلاد التتر، وتمثّله الصورة الثانية وهو يقدم رؤوس ثلاثة أتراك استطاع قتلهم إلى الأمير المسيحي سيجيموندس، أما الصورة الثالثة فتبرز الكابتن منتصراً وهو يذبح الباشا "التركي الشرير".

80 David H. Finnie: Pioneers East: The Early Ameican Experience in the Middle East, Cambridge: MA, 1967, 21.

81 انظر: David Haythorn Braden: The Eagle and the Crescent: American Interests in the Ottoman Empire, 1861-1870 (unpublished Ph. D. dissertation), University of Ohio, 1973, p29.

منذ مدة قصيرة قام الناجون من المذابح النازية مع كثيرين غيرهم بإحياء ذكرى ضحايا المحرقة اليهودية، وأكّد عدد من الخطباء والمعلّقين ومحرّري الصحف أن العالم لم يتّعظ بما حدث، وأشاروا إلى النزعة المفزعة المتنامية ضد السامية في أوربا وفي بولنده. ولكن قلّة منهم ذكروا كيف أن صور المسلمين الذين أصابهم الهزال في معسكرات وسجون الصرب تعيد إلى الأذهان فظائع المحرقة كما لا تفعل أي صور غيرها في الأزمنة القريبة.[82]

يعلّق **دانيال إيسترمن** على الصورة السلبية التي يتعامل بها الإعلام الغربي مع الإسلام والمسلمين بعبارات مؤثرة إذ يقول:

"تثير النزعة المعادية للسامية الأوربيين والأميركيين على وجه العموم، أما صور العرب والإيرانيين والشرق أوسطيين التي تملأ صحفنا وتطالعنا باستمرار على شاشات التلفزيون فإنها لا تحرك فينا ساكناً ولا يعادل أيٌ من هذا تطرف الدعاية النازية المعادية لليهود... ولكنه مع ذلك أمر ضار وخطير".[83]

ويستطرد إيسترمن:

"نحن في كل ذلك ندفع بأنفسنا إلى نوع من التهلكة. وكما لا تزيد المواجهة الحديثة بين الحضارة الغربية والبربرية الإسلامية عن كونها إعادة فعلية لقرون من الصراع بينهما، فإن الروايات التي تنتج عن تلك المواجهة ستكون صورة من نماذج التشويه والتعمية والتعريض الموجودة في الكتابات الغربية المبكّرة حول الإسلام والمسلمين. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن تحويل المسلمين (أو الباكستانيين أو العرب أو الإيرانيين) إلى أعداء جدد للأسلوب الأمريكي (أو البريطاني أو الفرنسي) في الحياة يوشك أن يجرّ في أعقابه أخطاراً من نوع جديد. لقد كان السوفييت عدواً "بعيداً هناك" غير معروف لغالبيتنا، كما

---

82 بل على العكس فقد صدرت رواية واحدة على الأقل تشير إلى محاولة مسلمي البوسنة اغتيال الرئيس كلنتون!! انظر رواية:
David Selves: Target Clinton, South Woodham Ferrers/Essex: New Author Publications, 1993.

83 انظر مقالة: Daniel Easternman: "The New Anti-Semitism", in New Jerusalems Reflection on Islam, Fundamentalism and the Rushdie Affair, London: Grafton 1992, p199.

كان مستتراً في ضباب المسافات والإيديولوجيات. أما المسلمون فإنهم ليسو "بعيداً هناك" بل هم يعيشون بين ظهرانينا في تزايد مستمر، مهاجرين ولاجئين، بل إن بعضاً من أفراد مجتمعاتنا قد اعتنق الإسلام".[84]

ومن أجل ذلك يجب أن يكون هناك سعي لتحقيق رؤية متوازنة. ولن تظهر منافع هذه الرؤية في المجالات العامة الواسعة مثل التسامح الإنساني والتعاون والتعايش العالمي، بل تتعداها إلى المجالات الأصغر مثل منح الجوائز عن كتاب أو فيلم أو نُصُب تذكاري. ورغم أني غير راغب (أو ربما غير مؤهّل) للتعليق على الواقع المعاصر لمنح الجوائز،[85] فإنني سأورد حالة واحدة وحسب، كانت قد حدثت عام 1850 عندما مُنح لقب "أفضل مسرحيات العام" لميلودرامة رديئة المستوى بقلم شخص اسمه **جورج ه. مِلْنس،**[86] وذلك على الأرجح بسبب إسهامها في تشويه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة كانت في ذلك الحين في صراع مع شعب شمال إفريقيا المسلم.

وقد يكون من الجوهري هنا، أن نشير إلى أ. **ف. هايك** الذي أثرت كتاباته في المفكّرين، ووجّهتهم خلال الأربعينيات والخمسينيات والستينيات عندما كانوا يسعون لتثبيت دعائم الفكر الليبرالي. وفيما يلي إيجاز لإحدى رؤاه الاستراتيجية:

"إنها في نهاية المطاف، معركة أفكار. والمثقف، سواء أكان صحفياً أم روائياً أم منتج أفلام أم غير ذلك، له وظيفة مهمة جداً، فهو الذي يترجم أفكار وآراء المفكرين وينقلها إلى الجمهور الواسع. إنه المصفاة التي تفرز ما الذي نسمع، وفي أي وقت نسمعه، وكيف نسمعه".[87]

---

84 انظر فصل "The Thriller in an Age of Detente" في New Jerusalems، المرجع نفسه، ص179.

85 انظر آراء نيكلسون – لورد في "Write Me a Novel I Can Read"، المرجع السابق.

86 انظر: George H. Milnes: Mohammed, the Arabian Prophet: A Tragedy.
في عام 1994، على سبيل المثال، حصل على جائزة النقاد الدوليّة في "مهرجان كان" للأفلام السينمائية فيلم بعنوان مدينة باب العويد من إخراج مرزاق علواش، يدور حول بروز "الأصولية الدينية" في الجزائر.

87 انظر: "John Blundell: "Waging the War of Ideas: Why There are no Short Cuts، وهي محاضرة ألقيت في "مؤسسة التراث" الأمريكية في تشرين الثاني، 1989.

وإنه لمن المهم كذلك أن نتأمل في كلمة التصدير المتشائمة التي افتتح بها **جون كولد سمث** روايته المعنونة سبيكة،[88] وناسباً إياها إلى مصرفيّ سويسري مجهول الأمس، حيث قال "للروايات غرض مفيد: إنها تخلق مناعة لدى الجمهور ضد الحقيقة**!**".

إن هذا التحيز الذي يخلق "مناعة ضد الحقيقة" (سواء تم عن تخطيط وعمد أو عن غير قصد) من شأنه حتماً أن يدعّم ويعمّق أزمة العلاقة بين الإسلام والغرب.

لقد بدأ موضوع الحوار بين الإسلام والغرب يأخذ توجّهاً جديداً وجاداً في السنوات الأخيرة، حيث كثرت الندوات والمؤتمرات التي تقيمها مؤسسات إسلامية أو غربية حول الموضوع، وازدادت المطبوعات التي تعالجه؛ لكن هذا الحوار يبقى متأثراً بالرواسب التي يخلفها هذا التحيّز. وسيأتي المحاور الغربي سواء أكان سياسياً أم مفكراً أم إعلامياً أم أكاديمياً، وقد حمل معه (دون رغبة واعية في أغلب الأحيان) ليس فقط تراكمات العصور السابقة بكل تحيُّزها وتشويهها للإسلام، بل تراكمات جديدة ترتبط مباشرة بواقعه ومحيطه وثقافته، وحتى قوت حياته، وخاصة الأخطار التي صُوِّر له أنها قادمة لا محالة من "الآخر"، فتضيف حواجز نفسية جديدة إلى عقد الماضي وحواجزه مما يضع سدّاً منيعاً أمام أي حوار بنّاء ومثمر يمكن أن يؤدي إلى نتائج إيجابية تقلل فرص الاحتكاك السلبيّ بين الحضارات والشعوب، وتمنع الصراعات الدامية في عالم تتزايد حاجته إلى التعاون.

وكيف يستطيع مُحاورٌ غربي أن يتعامل مع الآخر المسلم بتجرد وتسامح خاليين من أي أحكام مسبقة عندما تكون الصورة التي قد تشكلت لديه هي أن كل مسلم هو "أصولي"، وكل "أصولي" "متشدد" وكل "متشدد" هو حتماً "إرهابي" لا يمكن الحوار معه؟

---

88 انظر: John Goldsmith: Bullion, London: Arrow Books, 1982.